زكريا تامر

الهزيمة

رجع خليل السامر الى غرفته ، محني الظهر ، متعب القدمين . واستلقى على فراشه ، وارتجف مقروراً وحيداً ، ثم استسلم للنوم بينما كانت للريح خارج الغرفة اصوات ذئبة هرمة جائعة .

وتحولت الريح بعد حين الى يد مرتعشة الاصابع ، وفتحت باب الغرفة ، لتدلف الى الداخل ملكة سوداء الشعر ، لقامتها كبرياء الرمح الغاضب . وامرت ان يعذب خليل السامر حتى الموت ، فتعالت على الفور اصوات مبحوحة تردد :

« سنعذبه » . « سنضع ملحاً في عينيه » . « سنشوي لحمه » . « سنسحق عظامه » .

وارتعد خليل السامر مذعوراً ، ثم تحول ذعره الى دهشة عارمة حين ابصر الملكة السوداء الشعر تجثو على ركبتيها فجأة ، وتصيح متوسلة : « اهربْ اهربْ » .

فقال خليل السامر متسائلاً : « الى اين اهرب ؟ »

فبدا على وجه الملكة الم طاغٍ ، وتهاوت على الأرض ميتة ثم تحولت الى فراشة واختفت في فراغ اسود .

وظل خليل السامر ينتحب دونما دموع حتى افاق من نومه ذات صباح . وخيل اليه وهو يتمطى متثائباً انه نام مائة سنة وان معدته حقيبة فارغة عتيقة . فبادر الى مغادرة البيت ، وكان للبيت باب من خشب ، صفقه خلفه بشدة ، وسار في شارع له رصيفان ، ترين عليه السكينة . ولم يقابل اثناء سيره لا رجلاً ولا طفلاً ولا امرأة . وكانت البيوت مقفلة الابواب . ولم يشاهد وجهاً ما خلف زجاج النوافذ ، ولا امرأة تقف على شرفة . وكانت الأرصفة مغطاة بطبقة من اوراق الأشجار الصفراء ، والسيارات تقف بمحاذاة الارصفة مهملة يجللها الغبار .

وواظب خليل السامر على السير بخطى مرتبكة متباطئة حتى بلغ احد المطاعم . وحين همّ بالدخول اليه ، بوغت برؤية جرذ ضخم الحجم يتمطى دراجة . فابتسم ، وتطلع بدهشة الى السماء الزرقاء الصافية ، ثم دلف الى داخل المطعم . وهناك شاهد العديد من

الجرذان ، وكانت كلهـــا ضخمة الحجم ، تجلس خلف مناضد خشبية ، تتناول طعامها بحركات رصينة .

واختار خليل السامر منضدة منزوية ، وجلس خلفها يغمره الخجل والارتباك ، وثبت نظراته على الغطاء الوسخ ، واخذ يحصي البقع المتناثرة عليه ، فألفاها ست بقع .

وبعد قليل جـــاء الغرسون ، وكان جرذاً ضخماً ، يرتدي بزة سوداء وقميصاً ناصع البياض ذا ياقـة منشاة . تأمل الغرسون خليل السامر بنظرات مفعمة بالدهشة ، ثم حنى رأسه ، وأطلق من فمه صوتاً خشناً ممطوطاً ابحّ شبيهاً بنباح كلب موشك على الموت.

فقال خليل السامر :

« اريد كوب حليب ورغيفين وقطعة جبن وقليلاً من الزبد » .

فحنى الغرسون رأسه ثانية ، ومشى مبتعداً عن المنضدة. واغمض خليل السامر عينيه ، وحاول ان يتخيل طفلاً اشقر الشعر ، يضحك بعذوبة ، فلم ينجح ، وحاول ان يتخيل شجرة خضراء وعصفوراً صغيراً وامرأة سوداء الشعر ، ففشل ثانية ، وعضّ باسنانه على شفته السفلى . وعاد في تلك اللحظة الغرسون ، ووضع على سطح المنضدة صحناً فيه قطعة لحم نيئة . فاستاء خليل السامر ، وقال بصوت حانق مرتفع :

« ماهذا ؟ انا طلبت كوب حليب » .

فقاطعه الغرسون بصرخة نزقة ، وتابع خليل السامر قائلاً :

« طلبت كوب حليب ورغيفين وقطعة جبن وقليلاً من الزبد ، لا لحماً نيئاً » .

فنبح الغرسون ، ونبحت الجرذان الضخمة الحجم الجالسة وراء المناضد المجـاورة . وكان النباح قهقهة طويلة هازئة . فغضب خليل السامر اشد الغضب ، وحاول ان يتكلم محتجاً ، فضاعت الكلمات واختفت ، ولم ينبعث من فمـــه سوى نباح متقطع اجش . فاغمض عينيه لحظة ، وحينئذ ابصر ملكة سوداء الشعر تسقط ميتة ، ولم تتحول بعـد لحظة الى فراشة انما ظلت ملقاة على الأرض جثة صفراء .

وفتح خليل السامر عينيه بتثاقل ليبصر امامه قطعة اللحم النيئة ، وقد بدت له بغتة شهية مغرية ، فامتدت اليها يداه ، واطبقت عليها الاصابع بحرص ، ورفعتهـــا الى فم مفتوح ، وابتدأت الاسنان المنخورة تحاول مضغها . وفي تلك اللحظة دخل الى المطعم جرذ انيق الثياب ، وكان يجر خلفه طفلاً اشقر الشعر ، يمشي على يديه ورجليه ، وتطوق عنقه سلسلة حديدية .